بيان من أجل المقاومة الشاملة

نحو ترسيخ خطاب عربي مقاوم

. سماح إدريس* .

سقوط بغداد وضرورة المقاومة الشاملة

لسقوطِ بغداد فضيلةٌ واحدة، إنْ كان لهذا الحدثِ الجَلَل والإجرامي أيُّ فضائل. فلو عُدْنا إلى ما قبل ٩ نيسان (أبريل) ٢٠٠٣، وتأمَّلْنا الساحةَ الثقافيةَ الوطنيةَ العربية، لبَدَتْ أنّها تعاني حالاً من التقاطبية بين معسكريْن وطنييْن الأول يُطالب بالتصدّي للعدوان الأميركي وإنْ تحت يافطة النظام العراقي السابق؛ والثاني يرى الوقوفَ ضدّ الاحتلال وضدّ الديكتاتورية في الوقت نفسه. هذا ناهيكم عن موقف ثالث يؤيِّد الاحتلالَ بالكامل «تخلُّصًا من الديكتاتورية» كما يَزْعم ـ وهو ما لا يُمْكن إدراجُه ضِمْنَ أيٍّ من المواقف الوطنية أو القومية، وإنْ كان يتدرّع أحيانًا بتنظيرات «يسارية» و«ديموقراطية» ملفّقة.

بعد سقوط بغداد أعتقد أنّ من الممكن تجاوُزَ التقاطبية بين المعسكريْن الوطنييْن المذكوريْن أعلاه تحت أفقِ خطابٍ عامّ اسمُه «المقاومة الشاملة،» لا بوصفِ هذا الخطاب بديلاً ممّا سَبَقَ طرحُه من مشروعات نهضوية، بقدْرِ ما هو استكمالٌ خلاّقٌ لأفضلِ ما في تلك المشروعات. وأعْتقد أنّنا نحاول على مستوى مجلة الآداب الاضطلاعَ بهذه المهمة على الصعيد الثقافي. فبُعَيْدَ سقوط بغداد أصْدرنا عددًا تَضمّن ملفًا بعنوان: «العراق: القيامةُ بالمقاومةِ الشاملة » غير أنّني أرى من الممكن مَدَّ ذلك الشعار ليصبح «**الوطنُ العربي: القيامةُ بالمقاومة الشاملة**.» ولعلّ المقاومةَ العراقية إلى جانب المقاومة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية هي التي تتيح لنا اليومَ التحدُّثَ بثقةٍ أكبرَ عن مقاومةٍ شاملةٍ، أُعرِّف شموليتَها بأبعاد ثلاثة:

ـ فهي شاملة من حيث استهدافها جملةً من الأعداء والمعوِّقين، أمحتلِّين خارجيين كانوا، أَمْ قامعين داخليين، أشركاتٍ ومؤسّساتٍ عالميةً نهّابةً كانوا، أمْ عروبويين يجمِّدون العروبةَ في إطار محدّد.

ـ وهي شاملة من حيث عدم إغفالِها أيَّ أسلوبٍ في المواجهة: من الدعوة إلى العنف المسلّح ضدّ الاحتلال، إلى مقاطعةِ شركاته وداعميه، فإلى المقاومة الداخليةِ الثقافيةِ والإعلاميةِ والاقتصادية...

ـ وهي شاملة بحلفائها، أيْ من حيث تحالفها مع أوسع أُطرٍ ممكنةٍ في الداخل والخارج، على أُسس مَرِنةٍ لا تتنازل في الوقت نفسه عن الثوابت الوطنية والقومية وأهمُّها عروبةُ فلسطين، واستقلالُ الوطن العربي، وحريةُ أبنائه وبناته.[1]

ولعلّ المؤطِّرَ الأساسيّ لمشروع المقاومة الشاملة هو مؤطِّرٌ ثقافيٌّ بالدرجة الأولى. ذلك لأنّ نجاحَه، في هذه المرحلة على الأقلّ، مرهونٌ بقدرته على **إقناع** أكبرِ قدْرٍ من الناس بإمكانيةِ تحقيقِ المقاومة للأهداف الوطنية والقومية وهو مؤطِّرٌ ثقافيٌّ أيضًا لأنّه يَسْتند إلى تخليقٍ جديدٍ لمفهوم العروبة ـ وهو ما سأتناوله في القسم الثاني من كلمتي.

إنّ الخطاب القومي الأجدى اليوم هو إعادةُ تذكير الناس بعناصر قوّتهم الحاليةِ والكامنة، لكي يَعُوا أنّهم يحقِّقون، الآن وهذه اللحظة، ورغمَ كلّ شيء، انتصاراتٍ لا يُستهان بها؛ انتصاراتٍ قادرةً في المستقبلِ غيرِ البعيد على إلحاق هزيمةٍ شاملةٍ بالمحتلّين والتأسيسِ لمجتمعٍ عربيٍّ جديد. وأما عناصرُ القوة الحاليةُ فهي:

---

* ـ هذه هي النسخة الموسّعة للكلمة التي ألقاها رئيسُ تحرير مجلة الآداب في مؤتمرٍ عقدتْه الجمعيةُ الفلسفيةُ الأردنية في أوائل أيار (مايو) ٢٠٠٤ تحت عنوان «آفاق الخطاب العربي بعد احتلال بغداد.»

١ ـ ثمة صرعة دارجة هذه الأيام في أوساط المثقفين الليبراليين العرب (وبعضهم كان يساريًا متطرّفًا) وهي إدانة أيِّ حديث عن «الثوابت،» وخاصةً إذا كان الأمر يتعلّق بإدانة الولايات المتحدة أو تحرير كامل فلسطين أو تغيير الأنظمة العربية القائمة اللافت أنّ هؤلاء «الليبراليين» لا يجدون غضاضةً في السكوت الثابت عن نقد الأنظمة الرجعية، أو في القبضِ الثابتِ من خزائنها ووسائل إعلامها!

في الشهور الأخيرة تكثّفت أعمالُ المقاومة العراقية، واتّسعت قاعدةُ المقاومين

أولاً ـ نجاحُ المقاومة الوطنية والإسلامية في لبنان في طرد العدوّ الإسرائيلي، دون أدنى قيدٍ أو شرط، من معظم الأراضي اللبنانية، ونجاحُها أيضًا في تحرير أسراها وأسرى عربٍ آخرين، وفي تحريرِ جثامينِ الشهداء، وفي عدم تخلّيها عن حقّها في مواصلة المقاومة حتى تحرير مزارع شبعا والأسرى الباقين.

ثانيًا ـ نجاحُ الانتفاضة والمقاومة في فلسطين في تحقيق أمورٍ كثيرةٍ أهمُّها: خفضُ الهجرة اليهوديةِ إلى فلسطين من ٧٨ ألفًا عام ٩٩ إلى ٢٢ ألفًا عام ٢٠٠٢؛ وتفكيرُ أكثرَ من ربع اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفياتي سابقًا في المغادرة؛ وتراجُعُ قطاع السياحة الإسرائيلية بنسبة الثلثيْن بعد أن كان السُّيّاحُ يَصْرفون عام ٢٠٠٠ مبلغَ ٣،٥ بليون دولار؛ وطردُ آلاف العمّال الإسرائيليين من مصانعهم؛ وارتفاعُ المِصْاريف الحكومية الإسرائيلية على ضحايا العملياتِ الفدائية والاستشهادية وعلى إجراءات الأمن؛ واتّساعُ عجزِ الخزينة الإسرائيلية ليصل إلى ٦،٥٪ من الناتج القومي الإجمالي؛ وانخفاضُ معدّل الدخل الفردي الإسرائيلي من ١٨،٢٠٠ دولار عام ٢٠٠٠ إلى أقلّ من ١٦،٠٠٠ دولار اليوم؛ وارتفاعُ البطالة إلى ١٠،٦٪ وهو أعلى معدّلٍ في تاريخ الكيان الصهيوني؛ وارتفاعُ مُعاملِ اللامساواة Gini coefficient of inequality إلى حدودٍ تقترب من حدوده في دول العالم الثالث، إذ إنّ ١٠٪ من الإسرائيليين الأغنى توسّعتْ حِصصُتُهم من الكعكة مقابلَ تقلُّص حصّةِ الـ ١٠٪ من الإسرائيليين الأفقر؛ وارتفاعُ نسبةِ الفقر في الكيان الصهيوني من ١٥،٤٪ عامَ ٩٥ إلى ١٩٪ اليوم. وهذه الأرقامُ جميعُها ذكَرَها تقريرٌ صادرٌ عن صندوق النقد الدولي، وَوَرَد في مقالٍ لسيفْرٍ پلوكِرْ، وهو محلِّلٌ في **يديعوت أحرونوت** الإسرائيلية.[١]

ثالثًا ـ نجاحُ المقاومة العراقية في تكبيد الغزاة الأميركيين في الشهور الثمانية الأولى أكثرَ ممّا كَبّدهم إياه الڤيتناميون خلال السنوات الثلاثِ الأولى. وفي الشهور الأخيرة تكثّفتْ أعمالُ المقاومة، وزادت احترافًا (اعتمادًا، كما يبدو، على خبرة الجيش العراقي السابق وتضامُنِ العراقيين)، وطالت معظم أراضي العراقِ المحتلّ، واتّسعتْ قاعدةُ المقاومين مع استعداء الاحتلال لجيش المهدي والسيد مقتضى الصدر. يُضاف إلى ذلك رفضُ الشعب العراقي للبدائل المتعاملة مع الاحتلال الأميركي، وعلى رأسِها ما يسمّى بـ «مجلس الحكم.»[٢] فقد أظْهرت «المجموعةُ الدوليةُ للأزمات» (ومقرُّها في بروكسل) أنّ هذا المجلس يَفْتقر إلى الشرعية والسلطة والكفاءة؛[٣] كما بيّنتْ «غالوپ» الأميركية في ٢٠٠٣/١٠/٢٨ أنّ ٧٥٪ من العراقيين يعتبرونه «محكومًا بما تقرِّره سلطاتُ الائتلاف »[٤] وليس عبثًا أن يجري الكلامُ حاليًا عن توسيع مجلس الحكم ليصبح أكثر «تمثيلاً.»

رابعًا ـ اتّساعُ الرفض الشعبي العربي للولايات المتحدة، رغم تزايد الحملات والنشاطات الإعلامية والتمويلية الأميركية في الوطن العربي، وعلى رأسها قناةُ «الحرّة» وإذاعةُ «سوا» وبرنامجُ USAID فبحسب Pew Research Center، فإن ٦٩٪

١ ـ "The Landscape of the Israeli Economy, Society & Policy after 1200 Days of Intifada," A Saban Center Luncheon Briefing with Sever Plocker, Nov. 13, 2003.

٢ ـ من المؤسف أن ينبري أحدُ المثقفين الليبراليين اللبنانيين في أحد البرامج التلفزيونية («كلام الناس») ليصف «حكّامَ» العراق الجدد بأنّهم أفضلُ ممثّلي هذا البلد... وكأنّ شعب العراق غيرُ قادر إلاّ على إنجاب لصوصِ مصارف، وعملاءِ احتلال، وعملاءِ مخابرات تشيكية (سابقًا) وإيرانية (لاحقًا) وأميركية (حاليًا)!

٣ ـ ٤ ـ المجموعة الدولية للأزمات، «تقرير التحدي الدستوري في العراق،» مجلة **المستقبل العربي** (بيروت)، ١٢، ٢٠٠٣، ص ١٨٨.

إنّ الخطاب القومي الأجدى اليوم هو إعادة تذكير الناس بعناصر قوتهم الحالية والكامنة

من الشعب الأردني يَكْره السياسةَ الأميركية وأفكارَها الزائفةَ عن الديموقراطية؛ و٨٤٪ من الشعب المصري و٦٧٪ من الشعب اللبناني ترى أنّ انتشار المفاهيم الأميركية أمرٌ سيِّئ.[١] ولا شكّ أنّ حالة الرفض ستزداد مع الوجود العسكري الأميركي المباشر في الخليج والعراق، لأنّ العسكرة المفرطة لا تَجْلب الأمنَ بل التوتّر والكراهية. ولا ريب أيضًا أنّ المقاومة ـ بمختلف أشكالها ـ ستَعْنف مع تدفّق الأنباء عن انتهاكات جنود الاحتلال لحقوق الأسرى العراقيين، ومع انقشاع الأوهام عن أيّ إيجابية في ذلك الاحتلال.

ولعلّ أفضلَ ما يعبِّر عن اتّساع حالةِ الرفض الشعبي العربي تلك هو تطوُّرُ فعلِ المقاطعة العربية للبضائع الأميركية بل وللبضائع الأوروبية الداعمة للعدوِّ الإسرائيلي أيضًا (مثل نستله). فخلافًا لما يظنه الكثيرون، ومنهم للأسف قادةُ أحزابٍ وحركاتٍ قومية، فقد أَوْرد مكتبُ الإحصاء الأميركي US Census Bureau[٢] (أيْ حتى قبل انتشار أنباء الانتهاكات المذكورة) أنّ الصادرات الأميركية عام ٢٠٠٣ انخفضتْ إلى كلٍّ من مصر والمغرب وعُمان وتونس والإمارات واليمن وسوريا ولبنان، مع ملاحظة تراجُعٍ مطّرد دائم في مصر وتونس ولبنان. المؤسف في هذا الصدد ازديادُ الصادرات الأميركية عام ٢٠٠٣ إلى كلّ من البحرين وقطر والسعودية (بعد انخفاض مطّرد) وإلى الأردن والكويت (ثمة ازدياد متواصل، وإنْ كان يُعزى في الأردن إلى دور «المناطق الصناعية»). (راجع الملحق المرفق في نهاية المقال). أما بالنسبة إلى الشركات الداعمة للعدو الصهيوني، فقد أَغلقتْ بيرغركنغ بحلول أيار (مايو) ٢٠٠٣ ستةً من فروعها في الكيان الصهيوني من أصل ٥٦، وأَغلقتْ ستاربكس كلَّ فروعها الستة هناك في ١١ نيسان (أبريل) ٢٠٠٣ وانسحبتْ تمامًا مخلِّفةً ١٢٠ إسرائيليًا دون عمل.[٣] كما تراجعت المؤتمراتُ العلمية والأكاديميةُ العالمية هناك في العام الماضي أيضًا بنسبة ٦٦٪، وذلك بسبب المقاطعة الأكاديمية الدولية الواسعة للمؤسسات الأكاديمية الإسرائيلية.[٤]

خامسًا ـ اتّساعُ الحركة العالمية المناهضة للظلم والنهب، والمعادية للإمبراطورية الأميركية والسياسات الإسرائيلية. وقد كان أبرزَ المحطّات في هذا الصدد تجمُّعُ مئتيْ ألف إنسان يمثّلون ألفَ حركة شعبية ونقابية من خمسة وثمانين بلدًا في جنوى أمام قمة الثمانية الكبار عام ٢٠٠١؛ ثم تجمُّعُ ستمئة ألف إنسان في پورتو أليغري عام ٢٠٠٢ يمثّلون منظماتٍ فلاحيةً وعمّاليةً ونسائيةً وشعبيةً وسياسيةً؛[٥] وأخيرًا المنتدى الاجتماعيُّ العالميُّ في مومباي الذي ضمَّ ثمانين ألف شخص من ١٣٢ بلدًا يعارضون كما يقولون بنيةَ الإمبرياليات الصناعية.[٦] وربّما الأهمُّ هو أنّ بعضَ هذه التحرُّكات العالمية بدأتْ تُفْرِز ردودًا أكثرَ جذريةً وأقلَّ مسايرةً لـ «اليسار» الصهيوني، كـ «منتدى مومباي للمقاومة،» وهو منتدًى أقلُّ وسطيةً من المنتدى الاجتماعي العالمي ولا يتوانى أحيانًا عن تأييد المقاومة بل والكفاح المسلّح الفلسطيني والعراقي أيضًا.[٧]

---

١ ـ راجع أسعد أبو خليل، «أميركا تسوِّق أميركا للعرب،» الآداب ١/٢، ٢٠٠٣، ص ٩

٢ ـ http://www.census.gov/foreign-trade/balance.

٣ ـ Helen Jung, "Starbucks Pulls out of Israel..." **AP**, April 1, 2003.

٤ ـ Polly Curtis, "Academic Campaigner Backs Oxford's Israel's Rejection," **The Guardian**, June 30, 2003.

٥ ـ جان زيغلر، **سادة العلم الجُدُد**، ترجمة محمد زكريا إسماعيل (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣)

٦ ـ ٧ ـ هشام البستاني، «آفاق النضال الشعبي العربي عالميًا،» الآداب ٣/٤، ٢٠٠٤.

أفضل ما يعبّر عن اتّساع حالة الرفض العربي هو تطوّر المقاطعة للبضائع الداعمة لـ «إسرائيل» وللاحتلال في العراق

فإذا أضفْنا إلى هذه التجمّعات ما حَفَلتْ به السنواتُ الماضيةُ من مؤتمرات وحملاتٍ وتظاهراتٍ مؤيّدةٍ للقضايا العربية، كمؤتمر دوربان الذي دان إسرائيلَ بوصفها دولةً عنصريةً، وكحملة المطالبة العالمية بمحاكمة شارون، وكـ «حملة التضامن العالمية» التي قدّمتْ شهداءَ غربيين على مذبح فلسطين، وكالتظاهرات العالمية قبيْل الغزو الإمبريالي للعراق والتي وَصَفَها تشومسكي بأنّها أكبرُ مظاهرات في تاريخ أوروبا والولايات المتحدة تَحْدث قبل وقوع أيّ حرب،[1] وكحملات المقاطعة العالمية للبضائع الإسرائيلية أو الداعمة للكيان الصهيوني، وحملاتِ المقاطعة الأكاديمية لهذا الكيان، وكاعتبار غالبية الأوروبيين أنّ إسرائيل هي أكبرُ خطرٍ على السلام العالمي... إذا أضَفْنا كلَّ ذلك، وغيرَه كثيرٌ، اتّضح لنا أنّ نضالَنا لا ينمو في فراغ، وأنّ المطلوبَ تفعيلُه عالميًا وبناءُ قدراتنا التشبيكية المبدعة داخل ما سمّاه جان زيغلر بـ «المجتمع المدني العالمي» لكي يُثمرَ انتصاراتٍ تدريجيةً.

فالمقاومة، كما ينبغي على خطابنا، خطابِ الأمل، أن يشدّد، هي فعلٌ تراكميٌّ لا سحريٌّ، هدفُه ليس هزيمةَ المحتلّ بمعنى إبادتِه عن بكْرةِ أبيه، بل رفعُ كُلفةِ احتلاله حتى لا يستطيعَ تحمّلَها. والأمرُ عينُه بالنسبة إلى المقاطعة التي هي شكلٌ من أشكال المقاومة؛ فهدفُ المقاطعة هو الآخر ليس بالضرورة إغلاقَ الشركات الداعمةِ للاحتلال داخل الوطن العربي، بقدْرِ ما هو حثُّها على تغيير سياساتها ووقفِ استثماراتها داخل «إسرائيل» ـ إنْ أرادت تلك الشركاتُ مواصلةَ أرباحها ـ إرضاءً للمقموعين وتحسُّسًا لمعاناتهم من الصهيونية والاستعمار.[2] هكذا انسحب العدوُّ الصهيوني عامَ ٢٠٠٠ من معظم الأراضي اللبنانية ببضع مئات من القتلى والجرحى في صفوفه، مقارنةً بعشرات ألوف الشهداء اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين وغيرهم. وهكذا انسحبتْ أميركا من قيتنام بكُلْفةٍ لا تتجاوز ستينَ ألف قتيل، مقابلَ أضعافِ أضعافِ ذلك في صفوف الڤيتناميين. وهكذا أغْلقتْ ستاربكس مراكزَها الستّةَ في الكيان الصهيوني بعد الحملة العربية والعالمية ضدّها.

إذن، في مواجهة خطاب التيئيس الذي انتشر في الساحة العربية عقبَ سقوط بغداد، على البديل أن يكون خطابَ أملٍ ومقاومةٍ يَهْدف إلى التركيز على عناصر القوة المذكورة، التي ما كانت لتكون كذلك لولا عنصران أساسيان آخران:

● **العنصر الأساسي الأول** هو الإرادةُ الكفاحيةُ العاليةُ للمقاومين، ولاسيما في لبنان وفلسطين والعراق، أيْ حيث المواجهةُ المباشرةُ مع المحتلّ. وفي مقابلِ هذه الإرادة لشعوبٍ صغيرةٍ نسبيًا، ثمة أجانبُ جاء كثيرٌ منهم إلى فلسطين بدافع المال أو طمعًا بظروفٍ معيشيةٍ أفضلَ (يوفّرها الدعمُ الدوليُّ والشركاتُ المعولمةُ الكبرى)، بدليلِ تناقُصِ هجرتهم تدريجيًا مع اشتداد المقاومة الفلسطينية المسلّحة. وفي مقابلِ عراقيين مُفْعَمين بحبّ الوطن، ثمة أربعون ألف جنديّ من أصول هسبانيّة لم يَحْصلوا على الجنسية الأميركية بعدُ (non-citizens)، ولذا فَهُمْ يحاربون من أجلها فقط لا غير ـ[3] والفرقُ كبيرٌ بين الهوية (أو الوطنية) والجنسية (أو البطاقة) لو يَعْلمون. وثمة أيضًا عشرةُ آلاف مرتزقٍ من الصرب وجنوبيٍّ أفريقيا من أيام الفصل العنصري، يَحمْون پول بريمر والشركاتِ الأميركيةَ وأنابيبَ النفط في

١ ـ عن رومي ماهاجان، «المثقفون الأميركيون خَذَلوا الشعبَ العراقي!» الآداب ١/٢، ٢٠٠٣، ص ٥٧.

٢ ـ كيرستن شايد، «كوكاكولا والصهيونية،» **قاطعوا** (نشرةٌ تُصْدرها حملةُ مقاطعة داعمي «إسرائيل»/لبنان)، نهاية ٢٠٠٣، ص ٦.

٣ ـ James Gooder, "Nearly 40,000 of America's Frontline Soldiers are not US Citizens," Sep. 1, 2003, Aljazeera.net

عناصر القوة العربية ما كانت لتكون كذلك لولا الإرادة الكفاحية العالية والمبدأ الأخلاقي

العراق، لقاء المالِ فقط لا غير ـ[1] والفرقُ هائلٌ ما بين الإيمان والاتزاق لو يَعْلمون ذلك أيضًا. والأهمّ من هذا وذاك هو أنّه في حين قاتَلَ ويُقاتِل الفلسطينيون واللبنانيون والعراقيون وسط تأييدٍ شعبي عربي وعالمثالثي، رغم ضعف فعّاليّته الراهنة كما ينبغي أن نَعْترف، فإنّ الجنودَ الأميركيين يقاتلون وسطَ ضمورٍ في التأييد الشعبي الأميركي بسبب الأكفان الأميركية التي بَلَغتْ حتى ساعةِ كتابةِ هذه الصفحات سبعمئةٍ وستين بحسب الجيش الأميركي وأكثر من ثلاثة آلافٍ وثلاثمئةِ جريح (وهذا الرقم لا يَشْمل المرتزقة والهسبانيين!)، ووسْط ذعرِ الإسرائيليين في تل أبيب والمستوطناتِ وغيرِها وتزايُدِ رافضي الخدمة العسكرية الإسرائيلية.

● وأما **العنصرُ الأساسي الثاني** الذي لولاه لما بَرَزَتْ كلُّ عناصر القوة العربية الآنفة الذكر فهو العنصرُ الأخلاقي. ولا يقلّل من شأنِ هذا العنصر التّسْخيفُ الذي يُطْلقه أدعياءُ «العقلانيةِ» العربية بحقّه، أولئك الذين يسمُّون المقاومةَ كُلَّها «فوضى» و«إرهابًا» و«عبثًا» و«أعمالاً لاإنسانية ولاأخلاقية» لمجرّد حصول أعمالٍ محدودة ضدّ مؤسسات دولية مع أنّه لم يَثْبتْ ضلوعُ المقاومة العراقية بها ولم تتبنّها أصلاً. صحيحٌ أنّ الأخلاقَ لا تَصْنع نصرًا في ذاتها، لكنّها وَقُودُ الفعل المقاوم أجيالاً بعدَ أجيال. وأيُّ خطابٍ مقاوم، ولاسيما بعد سقوط بغداد، ينبغي ألاّ يُغْفِلَ هذا العنصرَ، الذي يُمْكن تلخيصُه بالقول التالي: نحن أصحابُ حقٍّ ومَظْلِمَة، في حين أنّ أميركا و«إسرائيل» معتديتان وكاذبتان. إنّ هذا العنصرَ الأخلاقي النبيلَ والبسيطَ هو الذي يُحيل الجسدَ العربي سلاحًا في ذاته حين يَعُزُّ السلاحُ المكافئُ للسلاح التكنولوجي المتطوِّر. ومن هنا مغزى العمليات الاستشهادية التي تُذكِّر بقول محمود درويش الاستشرافي الرائع قبل سنواتٍ من ازدهار الظاهرة الاستشهادية الفلسطينية: «وسَقَطْتُ قُرْبَكَ فالتَقِطْني، واضْرِبْ عَدُوَّكَ بي، فأنتَ الآن حُرُّ!»[2]

عناصر القوة الكامنة

لكنّ على خطاب المقاومة أن يُنبِّه أيضًا إلى عناصر القوة **الكامنة** التي ستَزيد المقاومةَ ضراوةً لو فُعِّلتْ، وأهمُّها القوةُ الاقتصادية، وعلى رأسِها النفطُ. يقول الباحثُ القطري فهد بن عبد الرحمن آل ثاني إنّ النفط ليس طاقةً فقط بل هو ثروةٌ أيضًا. ذلك أنّ السعرَ الافتراضي للاحتياطي النفطي الخليجي يبلغ ١٤ إلى ١٧ تريليون دولار إذا اعتبرنا أنّ سعرَ برميل النفط الخام يتراوح بين ٢٠ و٢٥ دولارًا؛ وهذا المبلغ يزيد على إجماليّ الناتج القومي لكلٍّ من الولايات المتحدة واليابان وألمانيا معًا.[3] والشائعُ أنّ الحاجةَ الأميركيةَ إلى النفط العربي ستبقى موجودةً لأنّه أرخصُ مصادر الطاقة عالميًا (دولارٌ للبرميل العراقي الواحد!) أولاً؛ ولأنّ النضوبَ النفطي الأميركي أمرٌ واردٌ قبل حلول عام ٢٠١٠ ثانيًا؛ ولأنّ الطاقة البديلة عن النفط لن تتحقّق قبل عام ٢٠٥٠ ثالثًا.[4] وربما كان على خطابنا العربي ألاّ يكفّ عن ترداد الحديث عن قوةٍ اقتصاديةٍ كبيرةٍ، كامنةٍ هي الأخرى، وأقصد الأموالَ العربيةَ المجمّدةَ في البنوك والاستثمارات الأجنبية، وقد قدَّرها آل ثاني نفسُه بتريليون دولار، أيْ ما يعادل ٧٧٪ من قيمة الناتج المحلي الذي يعيش منه ١،٥ بليون مسلم![5]

١ ـ جريدة **الحياة**، ٢٠٠٤/٢/٢٤

٢ ـ محمود درويش، «قصيدة بيروت» الجدير ذكرُه أنّ ثلاثةً من الحاضرين في المؤتمر اعترضوا على استشهادي بدرويش، لأنّه ـ كما قالوا ـ التقى بيول بريمر في مؤتمر دافوس.

٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ فهد بن عبد الرحمن آل ثاني، «هل النفط سلاح، ولماذا لا نستخدمه؟» **المستقبل العربي**، كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٤، ص ١٠٨، ١١١.

نضالنا العربي لا ينمو في فراغ، وإنّما المطلوب تفعيلُه عالميًا

العروبة الجديدة: الوجه الآخر لمقاومة المحتلّين والنهّابين

غير أنّ كلّ ما أتيْنا على ذكره من ضرورةِ تشديدِ الخطاب الثقافي العربي على عناصر القوة العربية الحالية والكامنة لن يَفِيَ بطموح الإنسان العربي ما لم يَرْتبطْ بمشروع إصلاح داخلي عربي جديد، لا يكون مُمْلًى من الخارج، ولا هو قاصرٌ مشوَّهٌ فَبْرَكَتْه الأنظمةُ العربيةُ (بمساعدة بعض المثقفين!) لإرضاءِ أميركا من أجل بقاء هذه الأنظمة وتوريثِ كراسيها إلى أبنائها وبطانتِها.[1] وقد اقترحْنا لهذا المشروع على الصعيد الثقافي عنوانًا هو «العروبةُ الجديدة»،[2] يتلخّص، ربما، في جملة واحدة: إعادةُ ربط الفكرة العربية بالديموقراطية.[3] فلا مستقبل زاهرًا للبلدان العربية في خضمّ التكتّلات الاقتصادية والسياسية الكبرى في العالم بغير الهوية العربية والوحدة العربية؛ ولكنْ لا هويةٌ عربيةٌ تبقى ولا وحدةٌ عربيةٌ تَرْسخ بغير الديموقراطية والمعلوم أنّ التركيز على الديموقراطية قد تراجَعَ لا في الوطنِ العربيِّ وحده بل في معظم أرجاء العالم الثالث في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، بدعاوى أولوية العدالة الاجتماعية وطرْدِ المحتلّ وغيرِ ذلك. اليومَ، بعد احتلال بغداد، أُجازِف بالقول إنّ دقرطةَ العروبة باتت أمرًا أكثرَ إلحاحًا من أيِّ وقتٍ مضى، لا لأنّ ذلك الاحتلال دلّ على أنّ انعدامَ الديموقراطية يؤدّي إلى الهزيمة العسكرية كما زَعَمَ بعضُ الليبراليين الجدد، فها إنّ أعتى الديكتاتوريات الشيوعية كنظام ستالين تَمَكّنتْ من هزيمة النازية، في حين عجزتْ عن ذلك ديموقراطياتٌ غربيةٌ كبرى.[4] ولكنْ مَنْ يا تُرى يُنْكر أنّ الشعبَ العراقي، بأطيافه المتعدِّدة، لم يبدأْ بالمقاومة الحقيقية إلاّ **بعد** سقوطِ النظام؟ بل مَنْ يُنْكر أنّ المقاومة المسلّحة للمحتلين معدومةٌ في الوطن العربي كلّه إلاّ حيث تنعدم السلطةُ أو تكاد (لبنان، فلسطين، العراق)؟

إنّ حريةَ المواطن أساسيةٌ في ذاتها، وأساسيةٌ للأهداف القومية أيضًا. ولكنّ الديموقراطية التي تدعو إليها «العروبةُ الجديدة» لا تَقْتصر على حرية الأفراد وحدَهم بل تَطُول جوانبَ متعدّدةً أيضًا، أهمُّها: دقرطةُ أحزابنا القومية والتقدُّمية التي طَغَتْ عليها النزعةُ القمعيةُ والأبويةُ وكرهُ الثقافة والمثقفين (بحجّة أولوية القضية الاقتصادية ـ الاجتماعية)، واستعداءُ الآخر («الغرب،» «اليهود،» «أميركا»... بإطلاقٍ وتعميمٍ فَجَّيْن). كما طغى على أحزابنا هذه ضعفُ استقطابها للنساء والشباب (رغم عبارات التملُّق المُسْبَغة على هاتيْن «الفئتيْن،» و المحشورةِ حشرًا في كلّ بيان قومي أو «تقدُّمي») وطَغَتْ عليها أيضًا عبادةُ الزعيم، واختزالُ العملِ السياسيّ في قيادةٍ «ملهَمَةٍ» هي التي تَفْهم وحدَها التكتيكَ والاستراتيجيا والجيواستراتيجيا وطغى عليها، أخيرًا لا آخرًا، احتقارُ الإثنيات الأخرى داخل الوطن العربي، أو الرغبةُ في إدراجها قسرًا ضمن القومية العربية.

إنّ تجديدَ الفكر القومي هو الوجهُ الآخرُ لخطاب المقاومة الموجَّه ضدّ المحتلّين والنهّابين. يَكْتب ماهر الشريف في مراجعةِ ملفٍّ أصدرتْه الآداب مؤخّرًا بعنوان: «من عروبةٍ إلى عروبة ـ أفكارٌ في تجديد القومية العربية»[5] ما يُمْكن اعتبارُه تلخيصًا ممتازًا لأفكارِ هذا الملف، فيقول:

١ ـ سماح إدريس، «اعتذار،» الآداب ٣/٤، ٢٠٠٤، ص ٩٦

٢ ـ صاحب هذا العنوان هو الصديق سعد محيو

٣ ـ سماح إدريس، «لبنان بعيون سورية،» الآداب ١/٢، ٢٠٠٣، ص ٦٤.

٤ ـ منير شفيق، «قراءة في بعض دروس العدوان على العراق،» الآداب ٥/٦، ٢٠٠٣، ص ٤٥

٥ ـ ملف من إعداد سماح إدريس ومحمد جمال باروت، الآداب ١١/١٢، ٢٠٠٣، ص ٦٢ ـ ١١٠

إنّ تجديد الفكر القومي هو الوجه الآخر لخطاب المقاومة الموجّه ضدّ المحتلّين والنهّابين

«أمّا في ما يتعلّق بتجديد القومية العربية، فقد كان هناك تركيزٌ [لدى المشاركين] على ضرورةِ أن تتحوّلَ القوميةُ العربيةُ من مجرّد حركةِ مقاومةٍ للخارج المتجبِّر إلى حركةٍ معنيّةٍ بالداخل وبضمانِ تقدّمه؛ وأن تَنْظر إلى هُوية مجتمعاتنا بوصفها هُويةً مركَّبةً ومتطوِّرةً ومتعدِّدةَ المستويات، بحيث تَجْمع في تعامُلِها مع المواطنين بين الحقوقِ الفرديةِ وحقوقِ الجماعات الدينية والإثنية المختلفة، وأنّ تقدِّمَ نفسَها كحالةٍ ديموقراطية، من خلال تخلِّيها عن نزعتها الانقلابية والنخبوية، ووصلِ ما انقطع من علاقتها مع النزعة الدستورية، وسعيِها إلى إعادة الشعب إلى مَيْدانِ الفعل السياسي والاجتماعي كي يأخُذَ على عاتقه المشروعَ الوحدوي...»[1]

كيف تعود الشعوبُ إلى مَيْدان العملِ السياسي من جديد؟

هذا هو السؤالُ الأساسي الذي علينا أن نَضْطلعَ به جميعًا، مثقفين وأحزابًا وهيئاتٍ اجتماعيةً وطنيةً وقوميةً وتقدُّمية. ولعلّي أقترح أن يكون أحدُ السُّبُل الأساسية إلى ذلك هو سبيلَ المقاطعة، مقاطعةِ البضائع الإسرائيلية والداعمةِ للصهيونية وللكيانِ الصهيوني وللاحتلال الأميركي في العراق. فهذا الطريق لا يضع المواطنَ العادي في الغالب أمام حالةِ مواجهةٍ مباشرةٍ وخطِرةٍ مع السلطات الأمنية العربية، ولكنّه في الوقت نفسِه يؤثِّر إيجابًا في تعبئة الناس ضدّ الأعداء، وفي تثقيفِ الذات والآخرين بترابط الصهيونية والإمبريالية والعولمة الرأسمالية على نحوٍ يُمْكن تعيينُه بالأرقام، وفي إقامةِ الصِّلات مع المجموعات العربية والعالمية التي تتبنّى المقاطعة، وفي إعطاءِ المواطن العربي الفردِ شعورًا بالقدرة على الفعل حتى في زمن ضعفِ الأحزاب أو تقاعُسِها، وفي إشعاره ـ عبر الوثيقةِ والمعلومةِ والأرقام لا عبر الإملاءِ النظامي أو الحزبي أو «الدينوي» ـ[2] بأنّ بإمكانه أن يُسْهم بشكلٍ مباشرٍ في إلحاقِ الأذى بأعداء قضيته، وفي تنميةِ الاقتصاد المحلّي والمشاركةِ في إضعاف أثرِ الشركاتِ النهّابة المعولمة.[3] ودَعُوني في خاتمةِ هذه الكلمة أَهْمِسْ في أُذُنكم بملاحظة سريعة، وهي أنّ حركة المقاطعة في لبنان على الأقلّ ترتكز بشكلٍ أساسي على العنصر النسائي والشبابي. أليس هذا في حدِّ ذاتِه وجهًا من أوجُهِ دقرطة الخطاب القومي العربي والفعلِ القومي العربي؟

بيروت

١ ـ ماهر الشريف، «القومية العربية مشروعًا للمستقبل!» الآداب ١/٢، ٢٠٠٤، ص١٠٠.

٢ ـ سماح إدريس، «ملاحظات على مؤتمر دمشق للمقاطعة الشعبية،» **قاطعوا**، ٢٠٠٣/٢/١٥، ص ١٣.

٣ ـ أحمد بهاء الدين شعبان، «سلاح المقاطعة وفلسفة البناء الإيجابي للقوة الذاتية،» **قاطعوا**، ٢٠٠٣/٢/١٥، ص ٣.

ملحق

البلد	الصادرات الأميركية عام 2000		الصادرات الأميركية عام 2001		الصادرات الأميركية عام 2002		الصادرات الأميركية عام 2003	
البحرين	448.9	↓	432.8	↓	419.5	↑	508.8	
مصر	3.334.1	↑	3.564.5	↓	2.868.6	↓	2.660.2	
المغرب	523.3	↓	281.9	↑	565.5	↓	465.1	
عمان	199.8	↑	306.3	↑	356.0	↓	323.1	
قطر	191.2	↑	335.8	↓	313.9	↑	408.4	
تونس	289.2	↓	276.0	↓	194.7	↓	170.5	
الامارات	2.284.7	↑	2.638.0	↑	3.593.2	↓	3.510.3	
اليمن	189.5	↓	105.3	↑	366.2	↓	195.1	
السعودية	6.3234.2	↓	5.957.6	↓	4.780.8	↑	4.959.9	
سوريا	226.0	↑	231.4	↑	274.2	↓	214.1	
الأردن	316.9	↑	339.0	↑	404.4	↑	491.9	
الكويت	786.8	↑	902.5	↑	1.014	↑	1.509	
لبنان	354.7	↑	418.2	↓	317.6	↓	314.3	

* الأرقام بملايين الدولارات

** المصدر : US Census Bureau